اسماعيل
ذكريات شخصية

تعرفت على اسماعيل شموط في سنة ١٩٦٦، عندما كنت في زيارة عائلية لدمشق، وزرت حينها معرض دمشق الدولي، حيث احتوى جناح فلسطين على معرض شخصي له، ضم مجموعة من الأعمال التي أصبحت ايقونات في الثقافة الفلسطينية. شعرت حينها بأنني أعرف هذا الفنان شخصياً، وكنت على اقتناع تام بأنني سوف ألتقيه يوماً ما، ونصبح صديقين. وبعد حوالي عقد من الزمن تحقّق ذلك، حيث وقعت حرب ٦٧ ، ودرست الفن وساهمت في تأسيس رابطة التشكيليين في الأراضي المحتلة، التي أقامت المعارض في الداخل والخارج. وصار الناس يكتبون عن هذه الرابطة وفنانيها، ويقتبسون أقوالهم الساذجة عن الفن والوطن. وصار من الضروري أن نقيم علاقة مع الاتحاد العام للفنانين الفلسطينيين، فسافرت إلى دمشق مرة أخرى ووصلت إلى بيروت في أواخر العام ١٩٧٧. وبعد أن تهت في جمال بيروت ودفء مكاتبها لبعض الوقت التقيت اسماعيل شموط في شقته بالقرب من ساحة الجامعة العربية. وخلال دقائق معدودة صرنا كأننا نعرف بعضنا منذ زمن. وساعد في تصعيد أجواء الألفة زوجته الفنانة تمام الأكحل بروحهاالمرحة البسيطة، ومجموعة من اللوحات المعروفة المعلقة على الجدران، وقرد أليف يعيش في إحدى زوايا

البيت. وأصبحت رابطة التشكيليين، ومن دون أية اجراءات بيروقراطية الفرع الرسمي للاتحاد في الأرض المحتلة.

توالت زياراتي إلى بيروت في السنوات اللاحقة، حيث ظل بعضها عالقاً في ذهني، ومنها مثلاً حين رافقني اسماعيل العام ١٩٧٨ في زيارة إلى شاعرنا الكبير محمود درويش. وزيارة أخرى في اليوم نفسه إلى بيت الفنان التشكيلي الفلسطيني إبراهيم غنام، الذي كان مقعداً، ويعيش هو وزوجته في فقر شديد في مخيم شاتيلا. وبالرغم من أن هذا الفنان الشعبي الأصيل بكى قليلاً في أول الأمر إلا أنه تحوّل بسرعة إلى إنسان قوي ذي معنويات عالية ورح مرحة يجيد العزف على العود والغناء.

وسافرت مرة أخرى على ما أذكر إلى بيروت العام ١٩٧٩ مع الزميل نبيل عناني للاشتراك في انتخابات الاتحاد العام للفنانين. وبالرغم من أنني ونبيل كنا نستمع إلى المرشحين الآخرين من باب المجاملة إلا أن الجميع كان يعلم أن فرع الأرض المحتلة هو من أشد المؤيدين لاسماعيل كرئيس للاتحاد. ولم ينبع هذا التأييد من باب المصلحة، حيث اننا لم نستلم أي دعم مالي يذكر من الاتحاد ولم نتوقع دعماً مالياً، ولكن كان التأييد ينبع من مكانة اسماعيل الخاصة في قلب كل واحد منا كفنان وأخ وصديق. إن مقدرة اسماعيل الفائقة على كسب صداقة وحب الفنانين، بالإضافة إلى مستواه الفني الرفيع وتاريخه النضالي العريق جعل منه الشخص المناسب لقيادة الحركة الفنية الفلسطينية، وابقائها متماسكة وفعّالة، خلال مرحلة هامة من تاريخها رغم أوضاع التشتت التي عاشتها والضغوط المختلفة التي تعرضت لها.

وفي العام ١٩٨١ سافرت ضمن وفد ثقافي لمنظمة التحرير إلى الاتحاد السوفييتي، كان يضم بالإضافة إلى شخصيات سياسية مهمة، وفداً من الفنانين أذكر منهم اسماعيل وتمام ومصطفى الحلاج وكامل المغني ومنى السعودي وابرهيم هزيمة الذي كان من أقرب الناس إلى اسماعيل شموط. وقمنا خلال هذه الرحلة التي استمرت حوالي الأسبوعين بافتتاح معرض فنيّ في متحف الشعوب وقابلنا عدة مسؤولين وفنانين، وزرنا عدة مؤسسات أذكر

منها جريدة پراڤدا، أما باقي الوقت فقد قضيناه سوياً في زيارة المتاحف وقضاء وقت ممتع، الأمر الذي وثّق العلاقة بين جميع أعضاء الوفد من الفنانين. وتعرف كل منا على جوانب شخصية حميمة للآخر، لم نكن لنتعرف عليها إلا من خلال رحلة بعيدة عن بيروت، وعند شعب صديق لا نفهم لغته. أما بالنسبة لاسماعيل، فقد تعرفنا على روحه المرحة، وأحياناً شقاوة طفولية جميلة، كنت أشعر أنه يبذل جهداً ليتغلب عليها، كما لمسنا جميعنا حرصه الأبوي على سلامة كل واحد منا.

وحصل بعد ذلك غزو لبنان، وتفرق الجميع، وانتهى المطاف باسماعيل وتمام في الكويت، حيث عاشا، كما قال لي، أجمل الأوقات في ضيافة الشعب الكويتي. واستمرت الاتصالات مع اسماعيل من خلال كلّ من الزميل ابراهيم هزيمة الموجود في ألمانيا، والزميل عدنان الشريف الذي كان موجوداً في قبرص. وتركزت جميعها حول الاتحاد وتنظيم المعارض واللقاءات بين ممثلي الفروع، وكذلك تجميع المعلومات عن فناني الأرض المحتلة. وبالرغم من أن هذه المعلومات اقتصرت على حقائق أساسية عن كل فنان، وما كان يوجد عند الفنان من صور أو شرائح ملونة لأعماله، إلا أن هذا الجهد يمكن اعتباره المحاولة الأولى لتوثيق الفن الفلسطيني. وفتح هذا الأمر عيوننا على أهمية توثيق أعمالنا بالصور والشرائح الملونة، حيث اننا لم نكن واعين لأهميته قبل سنوات الثمانينات من القرن العشرين. وأصدر اسماعيل كتاباً في العام ١٩٨٩، كان الأول من نوعه عن تاريخ الحركة الفنية الفلسطينية، واحتوى على معلومات هامة عن الفنانين الرواد الذين عملوا قبل النكبة، وكذلك عن أهم الفنانين الذين نشطوا في تلك الفترة، ولائحة طويلة بمئات أسماء الفنانين الفلسطينيين، ومعلومات أساسية عن كل واحد منهم. وبالرغم من أن هذا الكتاب واجه بعض النقد كأي عمل ثقافي آخر، خاصة لأن اسماعيل وضع سيرته الذاتية وأعماله بمثابة العمود الفقري للكتّاب، إلا أن أصوات النقد هذه لم ترتفع عالياً لأن الجميع كان يعرف أن اسماعيل كان يشعر فعلاً بأنه الأب الروحي للحركة الفنية الفلسطينية، من خلال جهده واهتمامه وفنه، وأنه لم يفرض

نفسه زوراً وبهتاناً عليها.

والتقيت، مرة أخرى، باسماعيل وتمام، وكذلك الزميل ابراهيم هزيمة في ربيع العام ٨٩ في اسبانيا خلال المؤتمر الدولي للمنظمات الفنية، حيث شاركنا فيه كوفد فلسطين. وقدم اسماعيل عدة أوراق هامة، اعتمدت من قبل رئاسة المؤتمر، وذلك بدعم من عدة وفود أهمها الوفد العراقي الذي كان يضم الفنانين فائق حسن واسماعيل الشيخلي. وقضينا مرة أخرى أجمل الأوقات في مدريد ومتاحفها ومقاهيها خلال أيام المؤتمر، وبعد ذلك في طليطلة التي تزخر بعبق كل من فنان عصر النهضة المتأخر «الغريكو» من خلال لوحاته وبيته وأشيائه الخاصة. وكذلك بما تبقى من الأندلس، وخاصة فن عمارتها وذكرياتها.

وفي العام ١٩٩٠ التقينا، مرة أخرى، في «المهرجان الأول للثقافة الفلسطينية» الذي عقد في القاهرة، وعملنا سوياً مع الفنانين الآخرين الذين شاركوا في المهرجان، وأذكر منهم ناصر السيوي ونبيل عناني وتيسير بركات على تنظيم معرض كبير للفن الفلسطيني. وأذكر أننا عشنا أجمل الليالي مع الشاعر توفيق زياد، الذي كنا جميعاً نعرفه، وكان صديقاً حميماً لاسماعيل وتمام. وتخلل هذه السهرة، التي اقتصرت على الفنانين فقط، العزف على العود والغناء. ومرة أخرى وبفضل الروح العذبة لاسماعيل والأجواء المريحة التي كان يخلقها بوجوده قضينا أجمل الأوقات في المتاحف، وعلى مقاهي النيل المفتوحة. لقد كنت أرى اسماعيل وجديته عند الضرورة وفي المواقف العامة. ولكنه كان شخصاً آخر بين زملائه الفنانين يشع مرحاً وعطفاً ومحبة، وكان كل الفنانين يبادلونه مشاعر الحب والاحترام.

وحدثت، بعد ذلك، حرب الخليج الأولى واحتلال الكويت وما تبع هذه الحرب من مصائب طالت الفلسطينيين في الكويت بخاصة، وفي باقي دول الخليج بعامة. وبالرغم من مواقف اسماعيل التي عارضت احتلال الكويت وصداقاته العديدة في المجتمع الكويتي، إلا أنه لم يستطع البقاء هناك فتوجه إلى الأردن، حيث وجد عند الأهل هناك كل الترحيب وحسن الضيافة. وقرر البقاء في عمّان، بالرغم من حصوله على ما يسمى الرقم الوطني،

الذي سمح له بالعودة إلى الأرض المحتلة. ومع هذا فقد قام اسماعيل وتمام، التي كانت ترافقه باستمرار بسبب حالته الصحية، بعدة زيارات إلى فلسطين، أذكر منها لقاءه مع الفنانين في مركز خليل السكاكيني الثقافي، وكذلك الندوة المصورة التي أقامها بدعوة من صديقه الحميم وأكثر الناس تحمساً لاسماعيل وفنه الأخ صخر حبش في مركز الكرامة الذي يديره، وحفلة عرس ابنه في رام الله. كما أذكر زياراته إلى القدس ومركز الواسطي، الذي كنت أديره في تلك الفترة. وفي زيارته الأخيرة للواسطي في العام ٢٠٠٠ كان في عجلة من أمره، وظننت حينها أن عنده مشاغل أخرى، أو ينوي زيارة البلدة القديمة. واكتشفت لاحقاً، ومن خلال حديث خاص مع الأخت فايزة زلاطيمو انه كان على موعد مع الفنان داود زلاطيمو. لقد كان يبدأ زيارته بتقبيل يده، وعند الوداع كذلك للتدليل على حبه وتقديره لأول معلم له عندما كان في بداية دربه الفني أيام الطفولة والمراهقة في مدينة اللد. وتوفي بعدها بفترة قصيرة هذا المعلم، وكان هذا اللقاء هو الأخير بين واحد من أهم الفنانين الرواد وتلميذه الذي كان صاحب الدور المركزي في الحركة الفنية الفلسطينية المعاصرة.

وكنت كلما سافرت إلى عمّان أعمل جهدي لزيارة اسماعيل في بيته الذي ظل مفتوحاً للفنانين، بقدر ما تسمح به صحته المتدهورة.

لقد انتهى دوره كرئيس للاتحاد بسبب معارضته لاحتلال الكويت، أي ليس بقرار من الفنانين، بل كما سمعنا بقرار سياسي، حيث انه لم يتحدث قط عن هذا الموضوع لي أو لزملائي الفنانين، وانتهى الاتحاد فعلياً بعد هذا القرار المجحف والأوضاع السياسية اللاحقة. ومع هذا فقد ظل اسماعيل شموط هو الرئيس الفعلي في قلوب ووجدان الفنانين، وكان اسمه وفنه يذكراننا، وباستمرار بفترة نضالية جميلة سوف نظل نحنّ إليها.

لقد اعتبرني اسماعيل، وعلى ما يبدو، واحداً من حاملي الشعلة، التي أضاءها في بداية الخمسينات، ولذا، فقد انزعج من ابتعادي عن الفن الاشتراكي الواقعي، الذي ميّز تجربته الفنية، والذي سرت أنا على خطاه بأسلوبي ورؤيتي الخاصة، ورأى في توجهي نحو العمل

بمادة الطين ومحاولتي الاستفادة من طبيعتها وخواصها ومعانيها الرمزية (وليس من خلال الموضوع المباشر) ابتعاداً عن فنه وفكره، وربما عنه شخصياً. أما أنا فقد رأيت في توجهي هذا نقلة طبيعية لدرب اسماعيل شموط فرضتها عليّ الرؤية المتغيرة لمفهومي الأرض والإنسان في الثقافة المعاصرة. وفي بداية العام ٢٠٠٥ بدأت أحنّ إلى المشهد الطبيعي الفلسطيني الذي اختفى خلف نقاط التفتيش وقرميد واسمنت المستوطنات والأسلاك الشائكة والجدار، وبدأت أعود إلى رسم المناظر الطبيعية كما أتخيلها في زمن الطفولة بالفحم والألوان المائية وبواقعية من يريد استعادة ذكرى وجه الحبيبة. وكتبت له رسالة الكترونية أعلمه فيها بهذا التحول في عملي الفني ورد عليّ بأنه يعتبر هذا الخبر من أجمل ما سمع مؤخراً. وكانت هذه آخر رسالة وآخر اتصال مع اسماعيل وكأنه وصيته الأخيرة لي بأن أظل قريباً من الناس لأن هذا هو سبيل الفن الثوري كما رآه وآمن به.

سليمان منصور

القدس